

كلمة بو زيد!



كان الشيخ "بو زيد" عائدًا إلى بيته برفقة بقرته، مسترجعًا إياها من حطيرة صديقه "بو طلال"، بعد أن قضت يومين هناك لكي يقوم ثور "بو طلال" بتجهيزها.. كان "بو زيد" راضيا بهذه الزيارة التي ستؤدي حتمًا إلى أن "تعشّر" البقرة وتلد له عجلاً أو اثنين، مما سيزيد الرزق الحال.

مشى "بو زيد" مقصوف الظهر وأحاديد التعب اختلطت بتجاعيد وجهه التي حفرتها السنون جراء عمله المضني في أرضه المغروسة بأشجار الزيتون، متسلقاً الجبال، معتنياً بأشجاره، جاراً وراءه بقرته الهولندية الضخمة القوية، وتستدل من طريقة جره للبقرة ونظراته التي يصوبها نحو عينيها بين الفينة والأخرى، بأن هناك علاقة متينة تربطهما معاً.

عند مدخل القرية، استوقفه شابان في مقتبل العمر.. اقتربا منه وسألاه عن حاله وأحواله فرد عليهم بالمثل.. تبرم الشابان وهما يرميان البقرة بنظرات إعجاب، فتأكد الشيخ بأن في جعبتهما أمراً مهماً، وفي طيات كلامهما مشكلة لا محالة.. فسأله أحدهما وهو أشقر الشعر: هل البقرة للبيع؟

- لا، ليست للبيع.. قال "بو زيد" وهو يهم بالابتعاد.

فتقدم الشاب الآخر وهو مربوع الجسم ثابت الجنان وربطة جأشه تنم عن بارقة أمل، وقال: سنتعطيك المبلغ الذي ستطلبه ثمناً لها..

فَكَرْ "بُو زِيد" قَلِيلًا، وَقَالَ فِي نَفْسِهِ: أَذَا بَعْتُهَا بِصَعْبِي مَا اشْتَرَيْتُهَا يُمْكِنُنِي شَرَاءُ بَقْرَةً وَثُورًا. وَحَدَّ ثُمَّنَهَا لَهُمَا، فَقَالَ لِهِ الْقَصِيرَ: اشْتَرَيْنَا هَا..

وَحَطَ فِي يَدِ "بُو زِيد" أَلْفَ شِيكَلٍ عَدَا وَنَقْدَا وَقَالَ: هَذِهِ سَلْفَةُ، غَدًا بِإِذْنِ اللهِ سَنَأْتِي مَعَ بَقِيَّةِ الْمُبْلَغِ لِنَسْتَلِمَ الْبَقَرَةَ.

عَادَ الشَّابَانُ أَدْرَاجَهُمَا رَاضِيَّينَ مَسْرُورِينَ وَجَرَ "بُو زِيد" بِقَرْتَهِ إِلَى بَيْتِهِ وَهُوَ لَا يَدْرِي مَا افْتَرَفَ يَدَاهُ وَمَا زَلَّ بِهِ لِسَانَهُ، كَانَ مَطْمَئِنًا بِأَنَّهُ أَبْرَمَ صَفْقَةً رَابِحةً أَكْثَرَ مَا يَتَوَقَّعُ، وَلَكِنَّ شَعُورَ خَفِيِّ عَشْشٍ فِي قَلْبِهِ دُونَ أَنْ يَدْرِي كُنْهَهُ.

وَصَلَ بَيْتَهُ، أَدْخَلَ الْبَقَرَةَ إِلَى الزَّرِيبَةِ، طَبَّطَ عَلَى ظَهَرِهَا وَهِيَ تَجُولُ وَتَصُولُ وَلَا حَتَّى ذِيلُهَا بِعَصَبَيَّةٍ طَارِدَةٍ بَعْضِ الدَّذَّابِ الَّذِي حَطَ عَلَى بَطْنَهَا، وَنَادَى زَوْجَهُ: يَا "أُمَّ زِيد"!.. قَوْمِي حَطِّي شَوِيَّةٌ شَعِيرٌ لِبَقْرَتِنَا، أَكْرَمِيهَا وَأَطْعَمِيهَا لَأَنَّهَا سَتَتَرَكُنَا غَدًا، فَقَدْ بَعْتُهَا.

قَفَرَتْ "أُمَّ زِيد" مِنْ مَكَانِهَا، وَهِيَ تَزْعَقُ: شَوْ عَمْ بِتَقْوِيلِي "بُو زِيد"؟! مَعْقُولٌ فَرَطْتُ بِبَقْرَتِنَا وَهِيَ مُثْلِّهِ وَلَدْ مِنْ أَوْلَادِنَا وَأَغْلَى.. مَعْقُولٌ يَا زَلْمَة؟ بَعْتُ الْبَقَرَةَ الَّتِي تَحْرَثُ لَنَا الْأَرْضَ بِلَا كُلُّ كُلِّ عَامٍ، مِنْ أَيْنَ سَتَشْتَرِي

الْحَلِيبَ وَأَيْ حَلِيبٍ سَيَكْفِي لِصَنْعِ الْجَبَنَةِ وَالسَّمْنَةِ وَالْقَشْدَةِ؟

- أَصْمَتِي يَا امْرَأَة.. لَقَدْ بَعْتُهَا بِصَعْبِي الْثَّمَنِ الَّذِي اشْتَرَيْتُهَا بِهِ..

- يَا وَيْلَكَ مِنْ إِنْ سَنْتَرْمَلْ جَمِيعًا إِذَا رَاحَتِ الْبَقَرَةِ.. وَمَنْ قَالَ لَكَ بِأَنَّ ثُمَّنَهَا مَا زَالَ كَمَا اشْتَرَيْتُهَا، إِنَّهَا تَسَاوِي الْيَوْمَ أَكْثَرَ مِنَ الْمُصْفَعِ..

وَأَخْدَتْ "أُمَّ زِيد" تَلْطِمَ خَدِيهَا وَتَقُولُ: إِذَا الْبَقَرَةُ خَرَجَتْ مِنَ الْبَيْتِ، سَأُخْرِجُ مَعَهَا وَلَنْ أَبْقِي فِي بَيْتِكَ يَوْمًا وَاحِدًا.. إِذَا طَلَعَتِ الْبَقَرَةُ سَتَنْطَلِعُ رُوحِي مَعَهَا.

أَخْذَ "بُو زِيد" يَفْتَلُ شَارِبِيهِ، لَا يَعْرِفُ بِمَاذا يَجِيبُ، وَلَمْ يَنْهِرْ زَوْجَهُ كَعَادَتِهِ لَأَنَّهَا كَانَتْ صَادِقَةً مَائِهَةِ

بِالْمَائِهَةِ، وَأَحْسَسَ بِأَنَّهُ تَسْرُعَ، فَلَعِنَ الشَّيْطَانَ الَّذِي وَسُوسَ لَهُ وَتَعَجَّلَ بِإِعْطَاءِ كَلْمَتِهِ لِلشَّابِينَ.

فِي تِلْكَ الْلَّيْلَةِ الْلَّيْلَاءِ، لَمْ يَعْرِفِ الزَّوْجَانُ كَيْفَ بَلَغُهُمَا الصَّبَاحُ، لَمْ يَغْمُضْ لَهُمَا جَفْنُ، وَ"أُمَّ زِيد" عَلَى نَارِ

تَفَكُّرٍ فِي طَرِيقَةِ أَدْهِيِّ مِنْ أَنْ تَقْعُدَ فِي هَذَا الْفَخِ، وَابْتَلَتْ وَسَادَتْهَا مِنْ دَمَوْعَهَا الَّتِي انْهَمَّتْ طَوَالَ اللَّيْلِ،

أَمَا وَسَادَةُ "بُو زِيد" فَقَدْ عَشَقَتْ رَائِحَةَ السَّجَائرِ الْعَرَبِيَّةِ الَّتِي لَمْ يَتَوَقَّفْ عَنْ تَدْخِينِهَا طَوَالَ اللَّيْلِ.

وَمَعَ اِنْبَلَاجِ الْمَصْبَحِ وَقَبْلَ أَنْ يَتَحَدَّثَ "بُو زِيد" وَلَوْ بِكَلْمَةٍ وَاحِدَةٍ مَعَ زَوْجَهِ وَإِلَّا بِسِيَارَةٍ شَحْنٌ كَبِيرَةٌ تَقْفَ أَمَامَ

بَيْتِهِمَا وَيَنْزَلُ مِنْهَا الشَّابَانُ.. تَنْحَنَّحَا وَبَعْدَ أَنْ أَلْقَيَا السَّلَامَ، دَخَلَا إِلَى بَيْتِ "بُو زِيد" وَشَرِبَا قَهْوَتِهِمَا وَ"بُو زِيد" مَطَاطِأً رَأْسَهُ، يَنْتَظِرُ حَدَوثَ أَعْجُوبَةٍ تَخْرُجُهُ مِنْ مَأْرَقِهِ.

يَنْتَظِرُ حَتَّى أَنْهَى الشَّابَانُ قَهْوَتِهِمَا. وَدَقَاتِ قَلْبِهِ تَتَضَاعِفُ مَعَ كُلِّ رَشْفَةٍ يَرْتَشِفُونَهَا، ثُمَّ تَنْحَنَّحَا وَقَالَ بِصَوْتٍ مُتَحَسِّجٍ: أَسْمَعَا يَا شَابَ، الْبَقَرَةُ لَيْسَ لِلْبَيْعِ وَتَعْصِلَا أَلْفَ شِيكَلٍ، أَنَا تَسْرَعُ بِإِعْطَايِي كَلْمَةِ لِكَمَا،

وَالْعَجلَةُ مِنَ الشَّيْطَانِ. يَخْلُفُ عَلَيْكُمْ وَكَثِيرًا خَيْرَكُمْ.

نَطَرَ الشَّابَانُ أَحَدَهُمَا إِلَى الْآخَرِ وَقَالَ الأَشْقَرُ سَاحِرًا: أَنْتَ "بُو زِيد" حَقًا أَمْ أَنْ "بُو زِيد" لَقْبُ أَنْتَ بِرِيءٍ

ثار غضب "بو زيد" الذي كطممه منذ ليلة الأمس ولم يجرأ على تفجيره في وجه أم زيد لأنها كانت على حق، فصرخ وعربد في وجه الشابين وقال: خذا البقرة فهي لكم..

رمي أحد الشابين المال الذي تبقى من ثمن البقرة أمام "بو زيد" وقام بإخراج البقرة من الزريبة متوجهًا نحو الشاحنة، سحب البقرة وكأنه يسحب قلب "بو زيد" من بين ضلوعه، وأم زيد توقف خلف الشباك ترافق وتنتحب بصوت خافت وتنتف شعرها و"بو زيد" يرفّ بعينيه وقد همتا بالبكاء، نافخا منخريه، يردد أمام الشابين وعلى مسمع من زوجته: الرجال موافق وسبق وقلت كلمتي..

صاحت أم زيد من الداخل وصوتها يتهدج بالتوسل: أيها الشابان انتظرا.. "بو زيد" باعكم البقرة وهي حصته ولم يبعكم ابنها وهو حصتي وهو يساوي عشرة أضعاف أمها.

نظر المربوع نحو أم زيد مستغرباً، ثم قال: يا خالتي نحن لن نأخذ سوى هذه البقرة ولن نأخذ ابنها.. - صحيح، لكن البقرة "عشرة"، وربما تلد عجلاً أو اثنين، وهذه حصتي من البقرة كما اتفقت مع "بو زيد"، وهي تساوي عشرة أضعاف السعر الذي تدفعونه.. ادفعوا هذا الثمن وخدا البقرة بما تحمل..

ندمت أم زيد على زلة لسانها، فقد فات أوان تصحيح غلطتها، فأطلقت تنحيدة أفرجت عما يحتاج صدرها. وابتسمت عندما نزلت البقرة من الشاحنة، وضحك حتي دمعت عينيها وكأن الدنيا لم تسع سعادتها.

قتل "بو زيد" شواربه ونظر صوب الأرض خجلاً من بقرته وزوجته، وتمتم قائلاً: مين قال إنو المرأة بنص عقل؟ أنا بلا عقل بالمرة..!!